

تجليات أبعاد الخطاب الصوفي في ديوان محمد العيد آل خليفة

The Manifestations of the Dimensions of Sufi Discourse in the Poems of Muhammad al-Eid al-Khalifa

الدكتورة: صليحة عوادي

aouadisaliha04@gmail.com

جامعة حسية بن بوعلي الشلف (الجزائر)

تاريخ النشر: 2020/09/02

تاريخ القبول: 2020/08/08

تاريخ الإرسال: 2020/08/01

الملخص:

إن الخطاب الشعري يتجاوز المستوى اللفظي إلى العديد من الرؤى منها الرؤية الصوفية التي تلامس التجربة الدينية التي ترتبط بالسفر الروحي والحب الإلهي ومجاهدة النفس، حيث تتبدد المعاني بين سحر الألفاظ وحقيقة الفكر، والارتباط الإلهي، وقد ظهر هذا الفن الأدبي في الجزائر مع الفتوحات الإسلامية على بلاد المغرب، ومما زاده قوة وانتشارا الزوايا والطرق الصوفية المنتشرة في الجزائر، ومن الشعراء الجزائريين الذين خاضوا غمار الكتابة في هذا الفن محمد العيد آل خليفة، وهذا ناتج عن تشبعه بالثقافة الدينية التي تنهى عن التعلق بالدنيا وملذاتها وتعلمه في الزوايا، فجاءت لغته الشعرية صارخة بالتوجه الديني.

فستحاول من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف عند تجليات أبعاد الخطاب الصوفي من خلال ديوان محمد العيد آل خليفة.

الكلمات المفتاحية: الأبعاد، الخطاب الصوفي، محمد العيد آل خليفة.

Summary :

The poetic discourse transcends the level of words to many insights like that of the Sufi that touches the religious experience that is related to spiritual travel, divine love and the struggle of the soul, where the meanings dissipate between the magic of words, the truth of thought, and the divine connection. This literary art appeared in Algeria after the Muslim conquests of Maghreb countries. It was made more powerful and widespread by the virtue of zawiyas and Sufi methods spread throughout Algeria. One of the Algerian poets who got into this literary art was Mohamed Eid Al-Khalifa. This was the result of his apprenticeship in the zawiyas and exposure the religious culture that forbade attachment to the world and its pleasures. As a matter of fact, his poetic language was blatantly religiously oriented.

Through this research paper, we will try to examine the manifestations of the dimensions of the Sufi discourse in the poems of Muhammad al-Eid al-Khalifa.

Key words: Dimensions, Sufi discourse, Muhammad al-Eid al-Khalifa.

المقدمة:

إن المتتبع للتراث الصوفي يدرك بالضرورة خصوصيته المتميزة سواء من ناحية الخطاب المستعمل، أو من ناحية التجربة الصوفية ذاتها، "فهي ليست تجربة دينية يرتبط ذكرها بالزهد، والسفر الروحي والمجاهدات، بل هي تجربة وجودية بكل ما للوجود من معاني واسعة يفتح عليها الصوفي بفكره وخياله، حيث يتسع أفقه في الحياة بغية إدراك الوجود المطلق، فيعيش تجربته وسلوكه إلى ربه في كل مجالات الحياة سعيا لمعرفة أسرار هذا الكون ومن ثم معرفة الحقيقة الكامنة وراء هذه الموجودات، وهي الوجود الحق أي الله سبحانه وتعالى فتصبح التجربة الصوفية سبيلا روحيا يتخذ الصوفي أداة للوصول إلى المعرفة وبحكم

انفتاحها على الوجود، فهي تجربة متنوعة تفتح أفقا واسعة للبحث في خصوصياتها، وأسباب اتجاهها إلى الجانب الروحي في الإنسان¹

يمكن القول أن التجربة الصوفية متميزة سواء على مستوى اللفظ أو التجربة في ذاتها، فهي تجربة لا تقف على السلوك الروحاني الذي يتصف به الزاهد، وغنما تتجاوزه للبحث عن المعرفة الروحانية وإدراك عالم ما وراء الموجودات، فيعبر الصوفي عن من خلال شعره عن سفره الروحي الدائم وعن حبه الإلهي. **بدء التصوف وظهوره:**

إن الناس اختلفوا في بدء ظهور هذه الكلمة واستعمالها كاختلافهم في أصله وتعريفه، فذكر ابن تيمية وسبقه ابن جوزي وابن خلدون في إن هذه التسمية الصوفية لم تكن مشهورة في القرون الثلاثة الأولى، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك (...) وقد أورد السراج الطوسي أنه لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ولا فيمن كان بعده (...) وهو اسم استحدثه البغداديون، وقد روى عن الحسن البصري أنه قال: رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه².

يمكن القول أن تسمية الصوفية هي تسمية مستحدثة لم تعرف في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبين صحابته وإنما استحدثه البغداديون حسب ما ورد السراج الطوسي عن الحسن البصري بأنه رأى صوفيا، فعلى الرغم إن هذا الاسم كان غير موجودا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن معناه كان متجسدا في صفات وسلوكات النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وزهده في الدنيا وملذاتها وتعلقه بالله وابتغاء مرضاته.

جملة من الدراسات تشير إلى أن التصوف "كمذهب ومشرب"، ولم ترج مصطلحاته الخاصة به وكتبه ومواحيده وأناشيده تعاليمه وضوابطه، أصوله وقواعده وفلسفته ورجاله وأصحابه إلا في القرن الثالث من الهجرة وما بعده³.

لقد مر مصطلح التصوف بالعديد من المراحل التي ارتبط وخصوصية كل عصر وثقافته: "ويمكن أن نميز في تاريخ المصطلح أربعة مراحل مهمة: المرحلة الأولى وهي مرحلة الظهور والنشأة، وفيها كان المصطلح الصوفي محصور المعاني والأغراض، يدور حول الزهد والمجاهدة والسلوك، أما المرحلة الثانية تحقق فيها نضج المصطلح وتطرق مصطلحاته وأغراضه ومعانيه لمجالات فلسفية وكشفية فتبلور الشطح وما حمله من وجد فاض به اللسان وعبر عن آفاق ومشاعر بالألفاظ، وفي المرحلة الثالثة اكتمل زاد المصطلح نسبيا وقد زاده ابن العربي وأغناه أما المرحلة الرابعة تتسم هذه المرحلة بجفاف الإبداع⁴."

مما تشير إليه الدراسات أن مصطلح الصوفية مصطلح حديث النشأة لم يعرف استعماله سابق بل ما كان متداولاً هو عبارة عن مضامين وسلوكات منها العابد والزاهد، ولكن هذا المصطلح مر بجملة من المراحل منها النشأة والظهور، ثم ثم مرحلة النضج، ثم مرحلة استيعاب المصطلح لزاد معرفي، لكن ما تعرفه المرحلة الرابعة نقص في الإنتاج الإبداعي.

أما الموضوعات التي شملها علم التصوف منذ فترة ظهوره إلى وقتنا الراهن وفق ما يتماشى وطبيعة هذا العلم القائم على الجانب الروحاني بالدرجة الأولى، وتجلت مواضعه في التوحيد والزهد والصفاء وأحوال النفس، وكذلك المعرفة وحقيقة الوجود، كما اصطبغت القراءة الصوفية بطابع الرمز والتأويل والاستعارة، لأنها

لغة تتسامى عن الوجود العادي، فالنص الديني من المنظور الصوفي هو نص مشفر نشأ عن حالة تتميز بالتحلي والمكاشفة تتجاوز معانيها المعجم اللغوي المتداول، ويمكن إحصاء هذه المواضيع في الزهد، وهو وثيق الصلة بالتصوف، وهو الترك والإعراض عن المزهود فيه، وبدايته الترك والإعراض، وتمكنه الاستئناس بتركه، ونهايته دوام نسيانه حتى لا يخطر بالبال، ونهايته احتقار الزهد والمزهود فيه، فلا يرى الزاهد شيئاً ولا يلتفت إليه".⁵

إن من أهم الموضوعات التي يركز عليها الخطاب الصوفي هو الجانب الروحاني والحب الإلهي إضافة إلى الزهد ومجاهدة النفس، ومعرفة حقيقة ما وراء الوجود، ويتميز به الخطاب الصوفي هو اصطباغه بالصبغة الرمز والتأويل، حيث يرى الصوفي أن النص الديني هو نص مشفر ليس من اليسير الوقوف على معانيه ودلالاته.

تكمن العلاقة بين الزهد والتصوف في حالة التخلي عن الدنيا وملذاتها والترقي في سلم الكمال الذي يفتح عوالمًا لصفاء النفس، وتعد التوبة والمراقبة ودوام الذكر وعلاج أمراض القلوب مثل الحسد والكبر والغرور من أساسياته، لأنه يربي السالك ويوصله إلى بر المعرفة، كما شكلت موضوعات الجمال والحب الإلهي والمرأة والخمر النواة الأساسية للتصوف، إذ لا نكاد نجد أي صوفي غلا وخاض في المواضيع المذكورة مضيفاً عليها ميزة الرمز، وقد تبدو هذه الموضوعات مثل المرأة والخمر غريبة لدى العامة لما فيها من تجاوز وإفراط في ذكر المحسنات لذات عليّة، لكنها في الحقيقة هي ما تواضع عليه الصوفية وجعلوه لغة منغلقة عليهم تقصي كل غريب عنها⁶، والحاصل عند الصوفية "أن شمس العرفان لا تدرك بعقل ولا حدس ولا برهان إنما تدرك ببيع النفوس وبذل الأرواح وبالخروج عما تعهده النفوس".⁷

إن الواقف على الخطاب الصوفي يجد نفسه أمام إستراتيجية خاصة من أجل تبديد المعاني وإخفاءها بين ظاهر اللفظ وباطنه حيزاً كبيراً، وهي دعوة إلى فهم الخطاب الصوفي في بعض مستوياته يستوجب المعاشة الحية للتجربة الصوفية وفك رموزها.

الشعر الصوفي في الجزائر:

من جلائل الأحداث التي طبعت التأريخ الروحي للإنسان إنصداع فجر التصوف من قلب المغرب واندفاق عيون الحكمة العالية التي أخصبت لعدة قرون إلى يومنا الحاضر طوايا التراث المعنوي للبشرية. حتى تعاقبت على الإستحمام بهذه الطاقة الضوئية أجيال من الجزائريين و طال إشعاعها أرجاء الأرض حتى تمكن القريب و البعيد من الإغتراف من هدية النور و الإرتواء من زمزم العرفان.⁸

من المسلم به أن التصوف الجزائري قد أغدق على روحانية المشرق و المغرب مما يوحى بقدرسانية و نورانية تراب هذا البلد الطاهر المشرق بالجمال (...). يكتسي العرفان الجزائري بعدا كونيا ماورائيا يتعدى الحدود الترابية للوطن. فهو يساهم بلا إنقطاع، منذ أربعة عشر قرناً، في تبجيل الإحتفاء المجيد بخدمة الله في أرجاء العالم. إن الطاقة النورانية للخطاب الإلهي معبأة بأكملها في التصوف".⁹

ترجع إرهابات الظاهرة الصوفية في الجزائر إلى الساعات الأولى لظهور الإسلام حينما تحولت أرض المغرب الأوسط تحديداً إلى ملجئ آمن لذرية رسول الله الذين لازوا بترابها فرارا من ملاحقة بني أمية و بني العباس خصوصا بعد المجازر التي ارتكبت بحقهم خلال مأساة كربلاء سنة 680 وواقعة فخ سنة 762 حتى أصبحت الجزائر تنعت عند أهل البيت بدار الهجرة و مستقر الايمان.¹⁰

إن من الأسس التي اهتمت بتقوية الخطاب الصوفي وإثرائه وخدمته الزوايا والطريقة، " فمن المعلوم أن معظم مؤسسي طرائق الحقائق التي يفوق عددها في الجزائر اليوم الأربعين طريقة صوفية، إن لم يكن جميعهم ينحدرون من أصل شريف (...) ومن أشهر هذه السلاسل الروحية (البكرية والتجانية والراشدية والرحمانية والقادرية والسنوسية ...) "¹¹ وغيرها من الطرق التي انتشرت في الجزائر.

تجسد الزاوية تعبيراً حياً عن حالة تأملية تنبع عن روحانية تلقائية. فهي تعمل على تغيير محيط المؤمن وتمكين هذا الأخير من الإرتقاء إلى السماء بمدّه قناة اتصال حميمية مع الملئ الأعلى دون قلعه عن مجتمعه وحقائقه الأرضية. هنا يكمن جوهر الوظيفة الإنسانية لهذه الفضاءات المغناطيسية المفتوحة التي تشكل بحق معارج للروح و صروح لتشييد و رعاية قيم التضامن و المحبة و السلام ¹².

فسرعان ما إستعادت الزاوية وظيفة تكوين مجاهدي النور الأشاوس الذين إنتفضوا ضد طغيان العباد و المؤسسات خاصة عقب الإحتلال الفرنسي من طراز الأمير الشريف سيدي عبد القادر بن محيي الدين مقدم الطريقة القادرية بمعسكر، عذراء الجبل المرابطة الشريفة لالة فاطمة نسومر بنت سيدي محمد بن عيسى مقدم الطريقة الرحمانية لدى قبائل زواوة "¹³.

التصوف كخلاصة شاملة للحياة يصبو برأفة و رقة إلى الإجابة على كبريات الأسئلة الوجودية. فهو يجمع بين الخالق و المخلوق بين الروح و الجسد بين الفرد و المجتمع بين الإيمان و الوطن. تعد هذه الحكمة المتوارثة في الجزائر جيل عن جيل التعبير الأسى لإنسانية الإسلام و لرسالته الكونية التي تؤكد على كرامة الرجل و المرأة باعتبارهما يقومان معا بخلافة الله التي تعد حماية الطبيعة و تقديس العمل و نشر الأمل و الفرح إحدى ركائزها الأساسية ¹⁴.

ويذهب البشير الإبراهيمي إلى أن التصوف في أغلب مظاهره كما أسلفنا. "الانقطاع والزهد في الدنيا والتجرد والتقشف ورياضة النفس على المشاق وفطمها على الشهوات" ¹⁵.

والرؤية الصوفية "قد تمثل ملاذا يلجأ إليه الشاعر في محاولة منه للإفلات من عالم المحسوسات و التسامي إلى عالم المثل العليا أملاً في الخلاص و بحثاً عن المعادل الوجداني لكيانه المفعم بالسمو و الامتلاء. و هنا تقع الصوفية في تماس مع الشعر باعتبار أنه تعبير عن تجارب روحية، و محاولة للكشف عن المطلق" ¹⁶.

لقد أراد الخطاب الصوفي أن يتوغل بالوعي الإنساني نحو أعماق معاني سمو على رتبة الحياة و تفاهتها، و أن يخلص الذات من أسرها، و يخرجها من هشاشة الواقع و يحلق بها في سماوات المطلق اللامتناهي، قصد تجديد النبض الروحي، و بغية ارتقاء أعلى موجات الصعود نحو المتعالي ¹⁷.

هل يمكننا أن نتحدث عن التصوف كموضوع في الشعر الجزائري؟ ما هي الأبعاد التي تشكل من خلالها الخطاب الصوفي عند محمد العيد آل خليفة ؟

لابد من الإشارة إلى أن الشعر الصوفي عندنا قليل ومساحته لا تضاهي ما كتب من شعر في مجالات أخرى كالسياسة و الاجتماع و الثقافة، وهذا راجع إلى أسباب متعددة نورد منها:

أن التجربة الشعرية الصوفية تحتاج إلى نوع من الثقافة التي تتجاوز السفر الروحي إلى عالم الوجود الذي يفتح عليه الصوفي بفكره و خياله، و الثورة التي كانت تشغل تفكير الشعراء و كانت تعتبر ملهمهم الأول، والفكر الإصلاحي هو الآخر كانت الثورة محور اهتمامه، و أخيراً ثقافة الأدلجة أو الانتماءات المتناقضة في زمن الإستقلال

ولذلك لم يستطع شاعر مثل محمد العيد آل خليفة أن يكون شاعرا صوفيا إلا أنه عانق التصوف من خلال الواقع الذي فرض عليه، وألا يتجاوز الصراع بين المادي والوحي، وألا يتصوف إلا في ظل رؤية إسلامية سليمة. محمد العيد آل خليفة (1904-1979) صاحب المرجعية العربية الإسلامية التي لم تفارق حياته نشأة وإبداعا منذ ولادته في مدينته عين البيضاء بشرق الجزائر إلى يوم وفاته بمستشفى باتنة عاصمة الأوراس.¹⁸

يقول محمد العيد آل خليفة في معرض كشفه لماهية التصوف عنده " إن هذه الصوفية لا أستطيع دفعها، وهي صوفية معتدلة تقوم على الكتاب والسنة، وهي لذلك تلتقي مع الفكرة الإصلاحية التي تقوم على الأصول نفسها، وإن شئت بيانا أكثر.... قلت لك أنني أتمثل في صوفيتي بقول أحد الأئمة وهو أني لا أقبل أي خاطر من الخواطر الصوفية إلا بشاهدي عدل و هما : كتاب الله و سنة رسوله، وهذا القول هو شعاري في صوفيتي ".¹⁹

وفيما يلي قراءة لأبعاد تشكيل الخطاب الصوفي لهذه التجربة الخاصة التي نرصد أشعارها أو بالأحرى جملها الشعرية وفق المعهود في عالم المتصوفين الذين ينطلقون في تجاربهم الصوفية الماثلة في شوائب دنيوية مؤدية بفجور نفسي إلى العلوي المجسد في إشراقات روحية تمارس في ظل حنين جارف إلى معادل منقذ من الضلال .

أبعاد تشكيل الخطاب الصوفي عند محمد العيد آل خليفة :

- عالم التأمل والخيال :

التأمل ملكة من ملكات الإبداع التي تؤهل الشاعر من خوض عوالم بعيدة عن المألوف، ولا يكون الشاعر مسلما معتقدا إلا إذا ملك أسباب السفر الروحي في رحلات إيمانية وجودية يبحث من خلالها عن معادل للواقع الذي غابت فيه هذه الإشراقات الروحانية، يقول محمد العيد آل خليفة:²⁰

وما الشعر إلا شعور سما خيالا بإيحائه الساحر
يهز النفوس بتياراه فتسمو إلى الأوج كالطائر
وتسبح في عالم شامخ على الأرض من إفكها طاهر

بهذه الفسحة الإيمانية نلج عالم التأمل لدى محمد العيد آل خليفة وهو عالم يشرق بنورانيته، عالم يسمو في بداياته الشعرية المناهضة للوطنية وقضاياها مشبعة بثقافة دينية إسلامية، يتجلى فيها الواقع بحيثياته وما ساده من ظلم وجور المستدمر الفرنسي، فأصبح الشاعر يعاني الغربة الروحية، فكان التأمل الحائر عند محمد العيد خليفة يتأجج ويفرش لنفسه تلك الأرضية المتوترة ذات رؤية تناقضت من حولها الأزمان والألوان وحتى الأفكار، فعبر قائلا في قصيدته "يا دار":²¹

بيض وسود وأشرار وأخيار كم تحتوين على الأضداد يا دار
العرش والفرش والأحداث بينهما خيرو شر فإقلال وإكثار
يا دار هل فيك من هاد ليرشدني فإنني مستريب فيك محتار

بعد تأمل الشاعر في هذا الكون و الحيرة التي انتابته، يسمو برحلته الإيمانية التي ينشدوا من خلاله الحقيقة، فيحيل في الأخير إلى باري الكون فمهديه تتبدد ظلمة النفوس و حيرتها، فيقول:²²

تبارك رب العرش لست بملحد أحاول طمس الحق بالشبهات
ولكن وجداني ينم بحسرة إلى القلب أو يوحى له بالشكاة
فيكسب من وزن الحقيقة سلسلا وينبت في روض النهى زهرات

مع هذه الفسحة التأملية التي فرشها الشاعر للعقل حتى يسمو بخياله عالم الحقيقة و يفتح على معان الوجود، فكانت قصائده ذات مضامين تأملية إيمانية، لهذا يعتبر التأمل و الخيال لب الفكر و أساس المعرفة عند الصوفية فنستنتج :

- أن الخيال أصل العالم لذلك يأخذ أعلى درجات الاهتمام و أشرفها عند الصوفية.
 - إن الخيال هو أساس الفهم الصحيح عند الصوفية يشترط الإتيان الصحيح لتعاليم الدين الإسلامي.
 - إن الخيال و التأمل هو السبيل الوحيد للربط بين الظاهر و الباطن و بالتالي هو أساس التأويل عند الصوفية.
 - أصبح الخيال عند المتصوفة يمثل " ركنا أساسيا في الحياة الصوفية برمتها و لقد أعلى المتصوفة من دوره في رصد تجاربهم الذوقية الوجدانية "²³.
- . عالم الزهد:

كانت النسبة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان و الإسلام فيقال مسلم و مؤمن ثم حدث اسم الزاهد و عابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد و التعب فتخلوا عن الدنيا و انقطعوا إلى العبادة.²⁴

" نعم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهد خلق الله في الدنيا و زخارفه، و أصحابه على سيرته و طريقته، يعدون الدنيا و ما فيها لها و لعبا زائلة فانية، و الأموال و الأولاد فتنة ابتلى المؤمنون بها فلم يكونوا يجعلون أكبر همهم إلا ابتغاء مرضاة الله يرجون لقاءه و ثوابه، و يخافون غضبه و عقابه، أخذين من الدنيا ما أباح الله لهم أخذه غير باغين و لا عادين مفرطين و لا متطرفين و على رأسهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلفاء الراشدون "²⁵.

وأمّا مقام الزهد معناه ارتفاع الإنسان بنفسه فوق شهواتها، و هذا معناه أن يتحرر تماما من كل ما يعيق حريته، إن الصوفي إذا لم يحكم أساسه في الزهد لا يصح له شيء مما بعده، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، و الزهد في الدنيا رأس كل خير و طاعة، و عرفه بعض المتصوفة بأنه ترك لذائد الدنيا الفانية المشروعة و غير المشروعة طمعا في لذائد الآخرة الخالدة، لذا كان الزهد عند بعضهم أفضل من الفقر لأنه فقر و زيادة، فالفقر عادي م للشيء اضطرارا، و الزاهد تارك للشيء اختيارا. و مقام الفقر هو توجيه الإرادة الصادقة إلى الافتقار الدائم إلى الله، و لا يعني الفقر الصوفي انعدام الملكية فقط بل يتضمن انعدام الرغبة في الأمور الدنيوية، و نفص اليد من المشاركة في الملكيات الدنيوية، و الرغبة في الله على أنه الغاية الوحيدة المرغوب فيها."²⁶

لقد عرف محمد العيد آل الخليفة من معين الثقافة الدينية الإسلامية، فمن خلال هذه الثقافة اهتدى إلى مسلمات من بينها أن الدنيا دار زوال وفناء ولا بد من مجاهدة النفس لأن النفس هي التي تؤدي بصاحبها إلى المهالك، والتزود بخير الزاد للأخرة فيقول محمد العيد في هذا الصدد:²⁷

تجهد النفس عانيه في المنى غير وانية
تتمنى وإنهـا في التمني لجانيها
يهدم الدهر كل ما كانت النفس بانية
أيها الحالم انتبه إن دنيا فانية

فهو يرى أن كل شيء في هذه الحياة سوف يدركه الفناء وأن الدنيا دار الضنك والابتلاء، فهو يتعجب من ممن يطلب فيها راحة النفس وهناء العيش، وهو يرى أن الفائز فيها من سلك سبيل الصالحين. يقول محمد العيد أيضا في مقام آخر:

فكن أبدا مع الأبرار واجنح لهدى إمامهم فهو المثال
رسول سن سنته طريقا معبدة يتاح لها الوصال
ولا يفتنك في الدنيا هواها وزخرفا فأكثره ظلال
وكيف تريد في الدنيا خلودا وعن قرب تسير بك الرحال
دع الدنيا وزخرفها وعرج إلى الأخرى هوى فهي المآل

- عالم العزلة:

يشكل الواقع حيزا كبيرا في بناء الرأي عند الأدباء والشعراء ويجبرهم على الانتماء الفكري والسياسي، وهذا ما انعكس في شخصية محمد العيد فجعله يجد لنفسه مهربا من خلال عقيدته ودينه، فاعتزل هذه الصوامع والأفكار، من أجل الخلاص من شوائب البشر ورجسهم، فدامت عزلته فترة طويلة، فقد عبر عن اعتزاله قائلا:²⁸

ظننت في الناس خيرا فخاب ظني و خبت
كم قلت شيئا كثيرا في مدحهم و كتبت
لقد كذبت فحسبي في شأنهم ما كذبت
وليت نحوك وجهي و تبت يارب تبت

وكان لعزلة محمد العيد أسبابا نفسية وروحية ذكرها الدكتور أبو قاسم سعد الله "الجوقد تكدر بينه وبين من لم يقدرُوا جهاده وفنه فخاب أمله واعتزته أزمته أثرت عليه تأثيرا حادا جعلته يصمت حيناً ثم يتجه اتجاهها صوفيا بشعره و يختار الهروب من الناس والأصدقاء"،²⁹ إضافة إلى ذلك الفتور الذي لحق بنشاط جمعية

العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة زعيمها عبد الحميد بن باديس سنة 1940، و الذي صاحبه تفكك في منهج الجمعية، وكذلك إلى الخلافات التي أججها الصراع بين زعماء الحركات الوطنية.³⁰

- عالم التصوف:

لقد انتقل التصوف من وضعه المعجمي إلى الاستعمال الذي ينم عن البعد الروحي، الذي يؤديه هذا المفهوم للتأسيس للاختلاف حول كم من القضايا المرتكزة على ثنائية الظاهر والباطن، وبذلك غدا التصوف حاملا للفكر الفلسفي والكلامي وتجلياته العميقة في الثقافة العربية الإسلامية.³¹

ومن أهم المبادئ التي تدعو إليها الصوفية؛ التوحيد بمعناه الكلامي والصوفي، وما يتصل بذلك من مسائل المعرفة بالله والمحبة الإلهية والفناء بالله والبقاء به، إضافة إلى النفس وأفاتها والأحوال والمقامات الصوفية، كالوجد والشوق والقرب، والأنس والغيبة والحضور والإيثار والذكر والتوبة ورؤية الله.³²

إن الجانب الروحي الذي يراهن عليه المتصوفة كعنصر أساسي لفهم نصوصهم يجعل المتلقي في موضع البحث والتدقيق أثناء التعامل مع النص باستخلاص المعاني الدوقية المناسبة للأحوال المعبر عنها، التصوف عند محمد العيد آل خليفة لا يأتي إلا صامتا، فالشاعر يمارس رحلاته العلوية في خشوع وصمت بعيدا عن الصوفية الشعرية التي لا نغثر عنها إلا إشارات ورموزا دالة على فكر صوفي نهل منه محمد العيد، فالتصوف إذن في شعره لا يتعد جملا شعرية تبدو للقارئ في بيت أو بيتين من قصيدة طويلة ثم تختفي فجأة حين ينافسها الفكر الإصلاحي، وتبعاً لهذا فإن تجربة التصوف عند محمد العيد الشاعر لا تقوى على أن تشكل الموضوع الذي ينمو وفق سمو روعي يبلغ عالم الشهود،³³ فالتجربة الصوفية تشغل عالما وجوديا من أجل تحديد رؤية الإنسان لنفسه ولوجوده، وهذا من خلال مجاهدة وتزكية النفس من شوائب الدنيا و حماه إلى عالم نوراني يسمو ويتعالى على ملذات الدنيا ومغرياتها .

يبدأ محمد العيد رحلته الروحية الإيمانية من مكة المكرمة موطن الوحي وينتهي بحب الخالق الذي لا ملجأ للفارين من جحيم الدنيا إلا إليه:³⁴

وركب ممعن الأشوا ق فيها رائح غادي
سقاك الله من ركب مشوق للهدى صاد
به الآمال والأعما ل رحل و الهوى حاد
رحلنا رحلة فيها خرقنا كل معتاد
طوينا الأرض والأجيا ل أبعادا لأبعاد
وجئنا مكة الفضلى فجسناها كرواد

يوصل محمد العيد رحلة الروحانية العلوية من مكة إلى السماء رحلة مفعمة بالشوق إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك ما نقرأه في قصيدة المطولة " تحية المولد النبوي " التي تعد من النوادر الشعرية التي خرج فيها محمد العيد آل خليفة عن توجهه وفكره الإصلاحي، لتصب هذه القصيدة في إطار التصوف فكرا و انفعالا وسموا روحيا، فينظم في شأنه قائلا:³⁵

هو الذي ذرأ الإله عباده وجماده من نوره المتوقد
هو الذي نمت الفضيلة والتقوى واليمن فيه إلى العلا والسودد
تقاصر الأمثال دون مقامه فمقامه فوق السها والفرقد

إن هذا الشوق والسمو الروحي وهذا التصوف الصامت الذي نلمحه عند محمد العيد لم يكن سوى أشواق نورانية فرضتها إسلامية الشاعر ومرجعيته الدينية، فحب الله سكن وجدانه فلم يفارقه طوال حياته، وإن ألزمه الصمت أحيانا: ³⁶

علمت بأن الأمر لله وحده فزهت قولي عن لعل وليت
خلا القلب من حب العباد وبغضهم وأصبح بيتا للذي حرم البيت

إن التجربة الصوفية في الخطاب الشعري عند محمد العيد الخليفة وإن كانت صامتة كما عبر عنها "عمر بوقرورة" إلا أنها تشكلت وتراءت عنده وفق أبعاد متعددة، باعتبار التأمل والخيال أول مراتب بلوغ العام الروحاني بإشراقاته النورانية وكان لمرجعيته الدينية الإسلامية بعدا أكبر، في حين نجد العزلة التي دخلها محمد العيد بسبب أمور متعددة انعكست على نفسيته، فأعطته مجالا فسيحا لهذه الرحلات العلوية التي أبدع فيها خطابا شعريا يتغنى فيه بحب الله والهروب إليه وحب النبي صلى الله عليه وسلم، ولقد تمسك بصوفيته اعتدادا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم "جاء الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء من أمتي" (رواه أبو هريرة في صحيح مسلم "145")

وكانت اللغة الشعرية لآل خليفة صارخة بالتوجه الديني وهذا راجع لتشربه لتعاليم الدين الإسلامي ولغة القرآن الكريم وهذا يتجلى من خلال الألفاظ والمعاني الواردة في دواوينه.

الهوامش:

¹ حسن صوالحية، بنية الخطاب الصوفي من خلال الفتوحات المكية لمحي الدين بن العربي، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، الجزائر، 2010.

2012 ص 07

² إحسان ابن الظهير، التصوف المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنة باكستان، ط1، 1986، ص35.

³ المرجع نفسه، ص45.

⁴ ينظر: رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 1999، ص15، 16.

⁵ محمد على كندي، في لغة القصيدة الصوفية، الكتاب الجديد، ط1، ص167.

⁶ ينظر: زهرة بن يمين، التأويل في التراث الصوفي الجزائري، رسالة دكتوراه، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، 2017، ص40.

⁷ عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر - الشعر وسياق المتغير الحضاري -، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص101.

⁸ زعيم خنشلاوي، التصوف في تاريخ الجزائر، ilmî ve akademik araştırma dergisi (2010/02)، ص209.

⁹ المرجع نفسه، ص209.

¹⁰ المرجع نفسه، ص209.

¹¹ المرجع نفسه، ص211.

¹² المرجع نفسه، ص219.

¹³ المرجع نفسه، ص214.

¹⁴ المرجع نفسه، ص219.

15. محمد البشير الابراهيمي، الطرق الصوفية، مقتطفات من نشرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مكتبة الغرباء الأثرية، الجزائر ط1، 2008، ص34.
16. عبد الله بوقصة، تداولية الخطاب الصوفي في ديوان اسرار الغربة، لمصطفى الغماري، رسالة ماجستير، 2010/2009، كلية الآداب والفنون جامعة مستغانم، الجزائر ص22.
17. عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل، دار الوصال، الجزائر، 1994، ص 56.
18. ديوان محمد العيد آل خليفة، ش و ن ت، الجزائر، 1979، ص 05.
19. المصدر السابق، ص 07.
20. المصدر نفسه، ص 09.
21. ينظر: آمنة بلعلي تحليل الخطاب الصوفي . على ضوء المناهج النقدية المعاصرة . منشورات الاختلاف، ط1، 2002، ص62.
22. ديوان محمد العيد آل خليفة، ص 11.
23. المصدر نفسه، ص 364.
24. إحسان ابن الظهير، التصوف المنشأ والمصادر، ص45.
25. المرجع نفسه، ص43.
26. عبد الله بوقصة، تداولية الخطاب الصوفي في ديوان اسرار الغربة، لمصطفى الغماري، ص42.
27. عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، ص 108.
28. المرجع نفسه، ص 116.
29. ينظر: أحمد عمر بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، ص 112.
30. المرجع نفسه، ص116.
31. ينظر: زهرة بن يمينة، التأويل في التراث الصوفي الجزائري، ص43.
32. أبو العلاء عفيفي، التصوف، الثورة الروحية في الاسلام، دار أقلام عربية القاهرة، ط1، 2017، ص101.
33. أحمد عمر بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، ص 108.
34. ديوان محمد العيد آل خليفة، ص 67.
35. المرجع نفسه، ص446.
36. المرجع نفسه، ص363.